Available at:
http://ejournal.unida.gontor.ac.id/index.php/tsaqafah
DOI: http://dx.doi.org/10.21111/tsaqafah.v11i1.259

TSAQAFAH
Jurnal Peradaban Islam

اللغة العربية ودورها في صياغ الحضارة الإسلامية

Dihyatun Masqon*
Universitas Darussalam (UNIDA) Gontor, Indonesia
Email: goodwords.dimas@gmail.com

Abstract

Language is a communication tool that is used by every human being to convey a particular purpose. Every human group has a different language to another. Language differences may occur in intonation, term and writing. Therefore language is very important in human life, even very influential in human civilization. Especially Arabic, Allah has determined that language is the language of revelation in which the truth was taken for granted through the boundaries of space and time. In human civilization, Arabic has a very important history. Arabic is a very old language, which has been used since man was created. Arabic is currently considered important by the world and made one of the languages of the United Nations. Furthermore, the advance of Islamic civilization has been greatly influenced by Arabic. In fact, Western Civilization has been able to develop due attention to the Arabic language. From that perspective, this article attempts to expound the role of Arabic language in the formation of Islamic civilization. In the context of civilization, understanding Arabic and mastering its use, either actively or passively, is a key condition to understanding the beauty and glory of civilization. History has recorded with gold ink, civilization based product revelation of various dimensions, spiritual, intellectual, and emotional. Thus, the duty of Muslims as perpetrators and manufacturer of Islamic civilization is to carefully read and explain continuously the great Islamic civilization.

Keywords: Arabic Language, Islamic Civilization, Influence, Role, Revelation

*Kampus Pusat UNIDA Gontor, Jl. Raya Siman Km. 06, Siman, Ponorogo Jawa Timur, Telp: +62352 483762 Fax: +62352 488182

Abstrak

Bahasa merupakan alat komunikasi yang digunakan setiap manusia untuk menyampaikan suatu maksud tertentu. Setiap kelompok manusia memiliki bahasa yang berbeda dengan yang lainnya. Perbedaan bahasa bisa terjadi dalam intonasi, lafal, dan penulisan. Oleh sebab itu, bahasa sangat penting sekali dalam kehidupan manusia, bahkan sangat berpengaruh dalam peradaban manusia. Khususnya bahasa Arab, Allah telah berkenan menentukan bahasa ini sebagai bahasa wahyu yang kebenarannya *taken for granted,* menembus batas ruang dan waktu. Dalam peradaban manusia, bahasa Arab memiliki sejarah yang sangat urgen. Bahasa Arab adalah bahasa yang sangat tua, yang dipakai ketika manusia diciptakan. Saat ini bahasa Arab dipandang penting oleh dunia dan dijadikan salah satu bahasa resmi Perserikatan Bangsa-Bangsa (PBB). Lebih jauh, majunya peradaban Islam sangat dipengaruhi oleh bahasa Arab. Bahkan, peradaban Barat pun mampu berkembang karena memperhatikan bahasa Arab. Berangkat akan perspektif itu, artikel ini mencoba menguraikan peran bahasa Arab dalam pembentukan peradaban Islam. Dalam konteks peradaban, mengerti bahasa Arab dan menguasai penggunaannya, baik secara aktif maupun pasif, adalah syarat utama untuk memahami keindahan dan kemuliaan peradaban. Sejarah telah mencatat dengan tinta emas, produk peradaban yang berbasis wahyu dari berbagai dimensinya; spiritual, intelektual, dan emosional. Dengan demikian tugas Muslim sebagai pelaku sekaligus pembuat peradaban Islam adalah membaca dengan cermat sekaligus menerangkan terus menerus keangungan peradaban Islam.

Kata Kunci: Bahasa Arab, Peradaban Islam, Pengaruh, Peran, Wahyu

تمهيد

إنّ اللغة، بدون منازع، تعد أعظم الآلات التي يستخدمها الإنسان في تحقيق التعاون والاتصال بأبناء جنسه، وبسبب ظهور اللغة المنطوقة (*Language Spoken*) قبل اللغة المكتوبة (*Language Written*) بدأ تاريخ ذلك الإنسان وبدأت معه الثقافة الإنسانية.[1]

وبالتالي، فإنّ نجاح الإنسان يتوقّف على قدرته في استخدام اللغة، ولقد اعتبر هذا – منذ وقت طويل- السمة البارزة التي تميز الإنسان، هذا الكائن المنفرد عن غيره من مخلوقات الله. وهي على حدّ تعبير اللغويين: أصوات وألفاظ مترتبة

[1] على أحمد مدكور، **تدريس فنون اللغة العربية**، (الرياض: دار الشواف للنشر والتوزيع، ١٩٩١)، ٩.

على نسق معين تترجم الأفكار التي تجول في النفس إلى عبارات وجمل تواضع عليها أهلها[٢]. وهذا يعني أنّها تختلف من الشعب الآخر ومن البيئة الأخرى حتى بلغ عددها اليوم ثلاثة آلاف لغة موجودة لحكمة يعلمها الله القادر المقتدر ذو القوة المتين حيث يقول: وَمِنْ آياته خَلْقُ السَّماوات وَالْأَرْض وَاخْتلافُ أَلْسنَتكُمْ وَأَلْوانكُمْ إنَّ في ذلكَ لَآيات للْعالمينَ.[٣] كما أنّها تعد تعبيرا مدهشا عن قدرة الله التي لا تناهي. وشاءت إرادة السماء أن يكون اهتداء الإنسان وما سواه من الكائنات.

وممّا سبق يتّضح لنا أنّ اللغة إنّما هي مجرّد وسيلة لا الغاية لذاتها، فهي أداة الفرد و وسيلته في التفكير وفي الوصول إلى العمليات العقلية والمدركات الكلية، كما أنّها صارت وسيلة للتعبير عن أفكاره ومشاعره ومشاكله وهمومه. وتعد اللغة أيضا حافظه للتفكير الإنساني وطريقا للتراث الثقافي والحضاري، وبالإضافة إلى كونها وسيلة للتعليم والتعلم.

اللغة العربية: خصائصها وعوامل خلودها

وممّا لا تختلف فيه اثنان أنّ اللغة العربية لما شأن عظيم ومكانة ساميةّ بين لغات العام. ولعلّ أنّهم مزيها — على رأي الباحثين واللغوين باتفاق- أنّها أطول اللغات الحيّة عمرا وأقدمهنّ عهدا، كما أنّها بالنسبة لأخواتها التي تنحدر من اللغة الأمّ الواحدة من مجموعة اللغة السامية كالكنعانية، والعبريّة والآراميّة والكلدانيّة والسريانيّة، والجيشيّة، تعتبر أرقاهن وأكملهنّ وأقربهنّ إلى اللغة الأمّ، وقد قال عنها فيرجسون (Ferguson):

> *"Thus, in terms of the number of speakers and extent of its influence, Arabic is by far the most important Semitic languages today and must be regarded as one of important world languages."*

(إنّ اللغة العربية سواء بالنسبة إلى عدد متحدّثيها أو إلى مدى تأثير في غيرها من لغات العامّ فإنّها تعد من أعظم اللغات السامية وينبغي أن ينظر إليها على أنّها إحدى اللغات

[٢] دحية مسقان، **الاتجاهات الحديثة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في إندونيسيا** (دراسة وصفية تحليلية)، رسالة الدكتورة، ٢٠٠٠، ٩.

[٣] سورة الروم: ٢٢

العظمى في العلم).[٤]

وهذه اللغة الشريفة، على رأي العلامة أنور الجندي، تمتّع بالخصائص المتميّزة قلّما توجد في غيرها، وكلّ خصيصة منها تعد دافعاً لنشرها وتعلمها، وأبرزها تلك الخصائص هي ما يلي:[٥]

١. إنّها لغة الفكر والثقافة والعقيدة، وهي لا تتراجع عن أرض دخلتها لتأثير الناشئ عن كونها لغة الدين ولغة العلم والفكر من حيث هي لغة القرآن الكريم الذي ألقي إلى الفكر الإنساني كلّه أضخم شحنة من القيم المبادئ.
٢. إنّ ناطقيها اليوم وبعد ألف وسبعمائة سنة، يفهمون أشعار الجاهلية والمخضرمين وفحول المتقدّمين، كما يفهمون أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبيّ، الأمر الذي دفع ريجيس بلاشير (Regis Blachere) عالم لغوي فرنسي يقول: ''إنّ وحدة اللغة العربية هي وحدة أخلاقية ودينية قبل كلّ شيء''.
٣. إنّها تتميّز بتنوّع الأساليب والعبارات، فالمعنى الواحد يمكن أن يؤدّي بتعبيرات مختلفة، كالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية.
٤. إنّها لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثي، ومن المعروف أنّ الاشتقاق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج إليه كلّ إنسان على نظام معين، الأمر الذي يؤدّي إلى وجود ثروة هائلة من المفردات حيث يمكن لها أن تزداد بلا نهاية. فمن مادة (س.ل.م.) على سبيل المثال، نستطيع أن نقول: سلم –بكسر عين فعله– من الآفات ونحوها أي برئ، وتشتق منها:[٦]

١. أسلم : انقاد وخضع، منها الإسلام.
٢. سالمه : صالحه، أي دخل السلم.
٣. سلم : حيا وألقي السلام والتحية.
٤. تسلّم :أخذ شيئا من يد غيره وقبصه.

[4] I.C. Ferguson, *Arabic Language in Encyclopedia Britannica*, Vol. 2, 1971, 182.

[٥] أنوار الجندي، **مقدمات العلوم والمناهج**، م:٤ في اللغة و الأدب و الثقافة، (القاهرة: دار الأنصار، د.ت)، ٥-٦.

[٦] مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ج:١، (القاهرة: د.م، ط:٣، ١٩٨٥)، ٤٦٢-٤٦٣.

٥. السلم : خلاف الحرب.
٦. السليم : الجريح المشفى على الهلكة.
٧. السلام : اسم من أسماء الله تعالى، وأيضا التحية.
٨. التسليم : الرضي والقبول.
٩. الاستسلام : لمس حجر الأسود بالقبلة أو باليد.
١٠. المسلم : من صدق برسالة محمد وأظهر الخضوع والقبول لها.

٥. ثمّ إنّ هناك صلة لغوية متينة ما بين كلمات الأسرة الواحدة «كتب» واشتققنا منها: كاتب، وكتاب ومكتبة، ومكتوب ومكتب، نجد أنّ الحروف الأصلية موجودة في كلّ كلمة من هذه الكلمات، كما أنّ معنى الكتابة موجودة كذلك، على عكس اللغات الأوربية حيث لا توجد في كثير من الأحيان تلك الصلة في «كتب» في الإنجليزية (*to write*) وبالفرنسية (*le livre*) ولا علاقة بين الحروف هذه الكلمات.

٦. شاءت اقدار السماء أن يكون هناك التلازم بين اللغة العربية وبين الدين الإسلامي – وقد أكد هذا الوضع الواقع التاريخي – حيث أنّ الإسلام هو العامل الوحيد تدين له اللغة العربية وإليه يرجع الفضل في انتشارها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد سارت في ركاب الإسلام أينما سار وحلّت حيثما حلّ. ولو لاه لما كان لها شأن يذكر، إذ أنّها في ظلّه أصحبت عاملا أساسيا لفهمه نظرا لارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي وصفه الله جلّ وعلا بقوله: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ.إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.[٧] وقوله أيضا: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .[٨]

ثمّ إنّ اللغة العربية من الدين الإسلامي لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها وهما من تفاعلهما ظلت كشجرة خضراء ممتدّة الأغصان وارفة الظلال طيبة الأكل فهي

[٧] سورة يوسف:١-٢.
[٨] سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥.

لا تدين للإسلام بانتشارها فحسب ولكنّها تدين له كذلك بكل عواملها الأصلية التي نشأت أساسا لخدمة كتاب الإسلام.

وإذا كان القرآن الكريم بتزولها بلغة قريش قد استطاع أن يوجد القبائل العربية وحملها معه إلى مختلف الأقطار المفتوحة، واستطاع أيضا أن يحفظها من صروف العربية وحملها معه إلى مختلف الأقطار المفتوحة، واستطاع أيضا أن يحفظها من صروف الزمان وسيظلّ يحفظها إلى آخر الدهر، فإنّه –بالإضافة إلى كلّ ذلك– قد تمكن من إرساء الدعائم والأسس التي جمعت المسلمين قاطبة من مشارق الأرض ومغاربها على وحدة التعبير والكتابة بالفصحي، بل جمعتهم أيضا علي وحدة الفكر بفضله أصبحت الأمة الإسلامية أمة واحدة لا فرق في ذلك بين أبيض وأسود. وقد لاحظ هذا الواقع المستشرف الأماني كارل بروكلمان (Brockelman Karl). أستاذ اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملكية ليدن، حيث يقول بفضل القرآن باللغة العربية من الاتساع مدسي لا يكاد تعرفه أية لغة من لغات الدنيا. والمسلمون جميعا يؤمنون بأنّ العربية هي وحدها اللسان الذي أحلّ لهم أن سيستمعلوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى.[٩]

وهكذا، مع نزول القرآن بهذه اللغة العربية ارتفع شأنها وأصبحت اللغة السائدة في بلاد المسلمين، بل وفي العالم الأجمع، كما أنّ لها فضلا كبير على نشر حضارة الفكر الإسلامي وقدّم العلوم والفنون والآداب المختلفة.

وكان الباعث الحقيقي وراء هذه الإنجازات الحضارية هو حب الاستطلاع بشتى أبعاده للوصول إلى النتيجة التي أشار إليها القرآن الكريم: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.[١٠]

وعن هذه الظاهرة الفريدة قالت المستشرقة الألمانية سيغريد هونكه (Sigrid Hunke): "وكيف سيستطيع المرء أن يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم وسحرها الفريد؟ فجيران العرب أنفسهم في البلدات التي فتحوها سقطوا صرعي

[٩] أنوار الجندي **مقدمات العلوم والمناهج**، ١٢٧.
[١٠] سورة صلت: ٥٣.

سحر تلك اللغة، جسما كان يشكو أساقفه إسبانية بمرارة. فلقد اندفع الناس الذين بقوا على دينهم في هذا التيار يتعلمون العربية بشغف، حتى أنّ اللغة القبطية، مثلا، ماتت تماما، بل أنّ اللغة الآرامية لغة المسيح قد تخلت إلى الأبد عن مركزها لتحتل مكانها لغة محمد.'' ثمّ أضافت قائله ''كما أنّه وجب ترجمة بيانات البابا وقرارات المؤتمرات المسيحية في القرن التاسع إلى العربية للأندلسيين، فقد رأت الكنيسة نفسها مجبرة على أن تترجم الإنجيل لهؤلاء المسيحيين، بعد تحررهم إلى اللغة العربية.''[١١]

تفاعل اللغة العربية مع اللغات الحية الأخرى

لم يكن يقترب القرن الأوّل الهجري من نهاية كانت مساحة العالم الإسلامي تمتدّ من الصين شرقا إلى الأندلس غربا، كما امتدّ إلى الشمال فشملت آسيا الصغرى شمالا وبلاد الفرس جنوبا، وهذا يعني أنّ ما سماه الباحثون المحدّثون بالعالم القديم قد وقع تحت سيطرة المسلمين الفاتحين ونفوذهم، وكان من لوازم ذلك أن يطلع المسلمون على ما لدي الأمم المفتوحة، وهو في جملته يتمثل في هذه الثقافات الثلاث، وهي: الفارسية، والهندية، واليونانية.

على أنّنا في هذه المناسبة، أمام حقيقة ثابتة لا بدّ من تسجيلها، وهي: أنّ هذه الأمم المفتوحة، مع ما لها من ثقافة وحضارة عريقة، قد قبلت لغة الفاتحين، وهي العربية بصدر رحب وأياد مفتوحة، بل وقد اتخذها لغة للعلوم والأدب، كما أصبحت لغة للإدارة وللشعائر الدينية، وبذلك تحولت العربية في خلال قرن واحد فقط من لغة محلية إلى لغة عالمية.

فالعربية على حدّ تعبير المستشرق تيودور نولدك (Noldeke Theodore) لم تصر لغة عالمية حقا إلا بسبب القرآن و الإسلام إذ تحت قيادة قريش فتح البدو سكان الصحراء نصف العالم لهم وللإيمان، وهذا صارت العربية لغة مقدّسة كذلك.[١٢]

---

[١١] سيغريد هونكه، **شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوربا**، (بيروت: دار الجيل – دار الأفاق الجديدة، ١٤١٣ ه/١٩٩٣ م)، ٣٦٧.

[١٢] رمضان عبد التواب، **فصول في فقه العربية**، ٢، (الرياض–القاهرة: مكتبة الخانجي والدار الرفاعي، ١٩٨٣)، ١٠٩.

وبذلك استطاع الإسلام أن يقدم أروع حضارة شهدها التاريخ في الماضي والحاضر والمستقبل. ولا تخفي أنّ هناك معنى عاما للحضارة يفهم من مدلول الكلمة نفسها، وهو: جملة مظاهر الرقي المادي والعلمي والفني والأدبي والاجتماعي في مجتمع من المجتمعات متشابهة

نظرة الدين الإسلامي للإنسان

لقد كان حجر الأساس في هذا البناء الجديد للإنسان يتمثل في نظرة الدين الإسلامي للإنسان بصفته صانع الحضارة، فلا بدّ لنا من أن نعرف هذه الحقيقة، لأنّ ذلك يعد المدخل الحقيقي في هذا المضمار.[١٣]

١. دوائر ثلاث:

إنّ الذي يتأمّل آيات القرآن الكريم يتبين له بكلّ وضوح أنّ الإنسان هو المحور الأساسي الرئيسي للوحي الإلهي، وكلّ ما جاء في القرآن الكريم إمّا حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان، أو عن شيء يتعلق بالإنسان بشكل أو بآخر.

وهذا يعني أنّ الدين الإسلامي معنى كلّ العناية بحياة الإنسان كلّه من أوّلها إلى آخرها. ومن هنا يمكن القول بأنّ الإسلام في جوهره دين للحياة بكلّ أبعاده المختلفة. دين يريد صياغة حياة المسلم صياغة متوازنة من خلال ثلاث دوائر متداخلة تشمل حياة الكائن البشري كلّها في صلاته بنفسه، وبالله، وغيره من أفراد الإنسان والحيوان والبنات والجماد. وبمعنى آخر صلات الإنسان بالكون كلّه بمن فيه ويخالق هذا الكون. فإذا كانت صلة الإنسان بفسه سليمة ومتوازنة كان ذلك منطلقا لاستقامة بقية الدوائر بهدف تحقيق السلام مع النفس في الدائرة الثالثة.

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يقول عن الدائرة الأولى التي تشتمل في صلة الإنسان بنفسه: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا."[١٤] لأنّ تطهير النفس من الرذائل والصفات الذميمة والأخلاق الفاسدة، وتزويدها بالقيم الأخلاقية

[١٣] محمود حمدي زقزوق، **الإسلام في عصر العولمة**، (د.م: مكتبة الشرف، د. ت)، ٨٩-٩٢.
[١٤] سورة الشمس: ٩-١٠.

السامية يجعل الانسان ينكشف فيها فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا.[١٥] وهي تلك الفطرة الصافية النقية المبرأة من كلّ ما بعكر صفوها، والتي من شأنها أنّ تدلّه على طريق الهدي والرشاد كما جاءت في القرآن الكريم: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا [١٦] والذين لا يلتفون إلى هذه الحقيقة ينبههم القرآن إليه بقوله: وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ.[١٧]

وعندما تستقيم النفس على طريق الخير والرشاد، وتتحقق من آيات الله في الأنفس، يشع فيها نور الإيمان الذي يملأ القلب باليقين الراسخ بالله الذي يشكل في وجدان المرء قاعدة أساسية لسلوكه في الحياة. وهذا يعني أنّه إذا استقامت هاتان الدائرة الثالثة، وهي صلة الإنسان بالكون الذي يعيش فيه، بمن فيه من أناس، وما فيه من كائنات حية وغير حية.

أمّا صلته بالناس فإنّها تقوم في الإسلام على أساس من التوحيد في الأخوة الإنسانية، ومن شأن الوعي بهذه الحقيقة أن يدفع البشر إلى تعامل مع بعضهم البعض وفقا للقيم الأخلاقية كالعدل واتراحم والصدق والتعاون، بهدف إقامة مجتمع إنسان يشعر كلّ فرد فيه بالأمن على نفسه وماله وأسرته، وأما صلة الإنسان بالكائنات الأخرى عدا الإنسان فإنّ الله قد خلقها لتكون في خدمة الإنسان، وجعلها مسخرات له، ومجالا لبحثه ودراسته من أجل تمهيد الكون كله لما فيه خير الإنسان وسعادته في دنياه وآخراه. ويعبر القرآن عن ذلك قوله: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.[١٨]

٢. ثنائية الإنسان:

ويؤكّد الإسلام أنّ الله تعالى قد خلق الإنسان من طين، أي من مادة، ولكنه يؤكد في الوقت نفسه أنّ الله قد أضاف إلى ذلك عنصرا آخر هو الروح

[١٥] سورة الروم: ٣٠.
[١٦] سورة الأعراف: ١٧٢.
[١٧] سورة الذاريات: ٢١.
[١٨] سورة الجاثية: ١٣.

المستمدة من روح الله. وهذا العنصر الجديد كرم الله الإنسان وسما به ورفع قدره. ولذلك طلب من الملائكة عند خلقه أن يسجدوا له فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ.[١٩]

ومن منطلق هذا التكريم الإلهي للإنسان حمله الله المسؤولية عن هذا الكون، فأصلح وكيلا عن الله وخليفة له في الأرض ليعمرها وينشر فيها الخير، ويصنع فيها الحضارة.[٢٠] أي طلب منكم عمارته. والعمارة المقصودة في هذه الآية عمارة مزدوجة في الوقت نفسه العمارة المعنوية ليوائم ذلك مع ثنائية خلق الإنسان من مادة و الروح.

ومن هنا نجد القرآن في الوقت الذي يطلب فيه من الإنسان العمل للآخرة يذكره بعدم إهمال العمل الدنيا، وفي ذلك يقول القرآن هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا.[٢١] فهناك إذن حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا يجازي الله فيها كلّ إنسان بما قدم من أعمال في حياته، فإن كانت أعماله خيرا فجزاؤه خيرا، وإن كانت شرا فجزاؤه شرا. فالله لا يظلم أحدا ولا يرضى بظلم أحد، ومن أجل ذلك يدعو البشر إلى تحقيق موازن العدالة في الدنيا. وفي ذلك يقول القرآن: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.[٢٢]

٣. التكريم لكل البشر:

ولقد كانت نظرة الإسلام منذ اللحظة الأولى للإنسان — بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو دينه — هي نظرة التكريم، كما جاء في القرآن الكريم في وضوح لا يقبا التأويل: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا.[٢٣]

---

[١٩] سورة الحجر: ٢٩.
[٢٠] سورة هود: ٦١.
[٢١] سورة القصص: ٧٧.
[٢٢] سورة القصص:٧٧.
[٢٣] سورة الإسراء: ٧٠.

كما لفت القرآن الأنظار إلى أنّ الناس جميعا قد خلقوا من نفس واحدة وهي يعني أنهم جميعا إخوة في الإنسانية يصرف النظر عن اختلافهم في الجنس أو اللون أو العقيدة فكلهم أبناء آدم، وهذا يعني أنهم متساوون في كل شيء.

وتأسيسا على ذلك نظر الإسلام إلى الاختلافات بين الأمم و الشعوب لا على أنها منطلق للتنازع والشقاق والحروب والخصومات، وإنما على أنها منطلق للتعارف والتآلف ومن هنا أوصي القرآن المسلمين بضرورة العيش في سلام مع الآخرين الذين قد يكونون مختلفين عنهم، وأمر بمعاملتهم بالعد طالما أنّ هؤلاء لا يعتدون على المسلمين. وقد نص القرآن على هذه القاعدة المهمة في قوله تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.[٢٤]

وهكذا نجد أنّ نظرة الإسلام إلى الانسان لم تكن أبدا نظرة ضيقة محدودة بحدود الإنسان المسلم، وإنما شملت الإنسان في كلّ زمان ومكان. فتكريم الله للإنسان لم تكن أبدا نظرة ضيقة محدودة بحدود الإنسان المسلم، وإنما شملت الإنسان في كل زمان ومكان. فتكريم الله للإنسان يعني تكريمه لكل إنسان من أوّل الخليفة إلى قيام الساعة.

ومن أجل ذلك جعل الإسلام الاعتداء على فرد واحد من أفراد الإنسانية بمثابة اعتداء على البشرية كلها، وفي المقابل جعل من يقدّم الخير لفرد واحد كأنه قدمه للبشرية كلها، تعبيرا عن التوحيد بين أبناء البشر جميعا. وفي ذلك يقول القرآن: مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ.[٢٥]

تلك كانت نظرة عامة وضرورة يتضح منها موقف الإسلام من الإنسان والكون، ويتضح منها كذلك دور الإنسان وصلاته المتعددة في هذا العالم الذي نعيش فيه. وقد بين الإسلاك ذلك كله منذ أربعة عشر قرنا من الزمان. وهي مبادئ

[٢٤] سورة الممتحنة: ٨.
[٢٥] سورة المائدة: ٣٢.

راقية وتعاليم سامية لم تصل البشرية إلى شيء منها إلا في العصور الحديثة.

معالم الحضارة الإنسانية كما صورها الإسلام

لعل من أهم هذه المعالم البارزة لهذه الحضارة الأمور الآتية. أولا: معرفة آيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس، وسنته تعال في الكون والمجتمع. فمن المؤكد أنّ هذه الآيات المبثوثة في الكون كلّه، لا ينتفع بها ويقرأ سطورها إلا أهل العقل والعلم والفقه. قال الله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الألباب.[٢٦] ويقول أيضا: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.[٢٧]

ومن المهم هنا العلم بأن هذا العالم لا يسير جزافا، ولا يتحرك اعتباطا، بل كل شيء فيه بقدر، وكلّ حركة فيه وفق قانون، وهو الذي يسميه القرآن: سنة، سواء أكانت سنة كونية أم اجتماعية. وإنّ هذه السنن ثابتة لا تتبادل ولا تتحول، وأنّها تجري على الآخرين كما جرت على الأوّلين، وأنّها تتعامل مع أهل الإيمان كما تتعامل مع أهل الكفر.

ومن تلك السنن أن شيوع الانحلال وانتشار المعاصي والمنكرات واختلاف الأوضاع في الأمة، يقرب ساعة هلاكها وتدمير كيانها وفساد أمرها كلها. ولهذا حين سئل النبي ص. م.: متى الساعة؟ قال للسائل: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.[٢٨]

وهذا كما ينطق على الساعة العامة للعالم كله، ينطق على الساعة الحاصلة لكل أمة، فإن ساعتها تأتي عندما تضطرب موازينها ويسردها جهالتها أو شرارها ويؤخر علماؤها وخيارها. ومن تلك السنن أيضا، أن الحق منصر وإن طالت محنة أهله، وأنّ الباطل إلى زهوق وإن استعلى وتجبر، وقال تعالى: ''وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ

[٢٦] سورة آل عمران: ١٩٠.
[٢٧] سورة فصلت: ٥٣.
[٢٨] الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان.

وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا.[٢٩]

ومن تلك السنن أيضا، أنّ هذه الأمة لا تجتمع كلها على ضلالة فلا بدّ أن يبقي في الأرض من يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. وما أصدق قول المصطفي ص. م.: لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس.[٣٠]

ثانيا: الوقوف على حقيقة العلم وأهميته ودوره، وقد تكاثرت في شأنه نصوص القرآن الكريم و السنة المطهرة، فالإسلام دين العلم وحضارته قائمة عليه بكل معنى الكلمة. وأول ما نلاحظه في هذا الصدد هو الحث على اكتساب كلّ علم نافع في الدين أو في الدنيا حتى يقوم الإنسان بدوره في عمارة الكون وصنع الحضارة. وأطلقت كلمة العلم دون أن تعني نوعا معينا من العلم على إطلاقه بما فيه في ذلك ما يسمّى اليوم باليوم بالعلوم النقلية (*Sciences Native*). والعلوم العقلية والتحررية (*Science Experimental and Intellectual*). والعلوم الإنسانية (*Humanities*). وهذه العلوم مع كثرتها وفروعها تربطها جميعا رابطة دينية تتمثل في آيات قرآنية، منها قوله تعالى: ''إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ.[٣١] كما تتمثل في أقوال الرسول ص. م. منها: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم وإن طالب العلم يستغفر له كلّ شيء حتى الحيتان في البحر.[٣٢]

وبالتالي فقد رفض الإسلام التقليد الأعمى للآخرين فيفكر بعقله لا بعقولهم، وإن كانوا أجداده، وأباءه أو سادته وكبراءه، كما قال تعالى ''وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ.''[٣٣] ومما يؤثر عن النبي ص. م. قوله «لا تكونوا إمعة، تقولون: إنّ أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس

[٢٩] سورة الإسراء: ٨١.
[٣٠] الحديث رواه الشيخان.
[٣١] سورة فاطر: ٢٨.
[٣٢] الحديث رواه بن عبد البر عن أنس.
[٣٣] سورة البقرة: ١٧٠.

أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا.[٣٤]

ومن معالم الفقه الحضاري فسح المجال للرأي الآخر وقبول الحوار معه، بل الدعوة إلى هذا الحوار سواء أكان هذا الآخر مغايرا في السياسة أم في الفكر أم في الدين. وسرّ ذلك: أنّ الاختلاف سنة من سنن هذا الكون الذي خلق الله فيه الأشياء مختلفا ألوانها، ولو شاء ربك لخلق الناس في معقداتهم وأفكارهم وميولهم. وقد أعطانا القرآن الكريم نماذج من الحوارات مع المخالفين في مختلف العصور والبيئات لنقتبس منها ونستفيد من خلال دراستها، منها: الحوار بين الرسل وأقوامهم، بل بين الله ذي الجلال والإكرام وبعض خلقه.

ثالثا: ومن معالم هذه الحضارة فقه الحياة أو بعبارة أخرى: المعرفة بقيمة الحياة، فلا يجوز إهمالها أو عدم الاهتمام بها، فالإسلام يعتبر هذه الحياة نعمة يجب أن تشكر، وأمانة يجب أن تراعي ورسالة يجب أن تؤدي وفرصة يجب أن تشكر، وأمانة يجب أن تراعي ورسالة يجب أن تؤدي وفرصة يجب أت تغتنم.

صحيح أن هذه الحياة فانية، ولكنها وحدها مزرعة للحياة الباقية، فالمؤمن يزرع هنا ليحصد هناك ويعمل هنا ليجزي هناك، يجبني من الشوك العنب وإنما توفي كلّ نفس ما كسبت، قال الله تعالى هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.[٣٥]

صحيح أنّ هذه الحياة قصيرة جدا، ولكنها بنفس القدر ثمينة جدا، إذ هي الفرصة الوحيدة للإنسان ليحقق السعادة الأبدية، فالإنسان لا يحيي مرتين ولا يعيش عمرين، فمن الحماقة أن يضيع الفرصة المتاحة له، بل العقل والحكمة وأن يغتنم كلّ لحظة فيها، ليس منها لغدة و يؤمن مستقبله. ومن هنا كانت قيمة الوقت التي نوه ها القرآن وأكدها السنة، يقول تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا.[٣٦] وفي الحديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس،

[٣٤] الحديث رواه الترمذي عن حذيفة.
[٣٥] سورة الجاثية: ٢٩.
[٣٦] سورة الفرقان: ٦٢.

الصحة والفراغ.[٣٧] وفيه أيضا «لن تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شابه فيم أبلاه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه.[٣٨]

ولقد كان من مزايا الإسلام أنه دعا إلى العمل في الحياة وعمارتها والاستمتاع بطبيباتها، ولم يرى ذلك منافية للسعي لعمارة الآخرة والاستعداد لها، بل دعا إلى سعادة الدارين وامتلاك الحسنتين: وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.[٣٩]

بالإضافة إلى ذلك فقد نبه الإسلام على الاهتمام بالغايات العليا للحياة، فليست الحياة لمجرد الأكل والشرب واللهو واللعب، فإن الحياة قصيرة العمر، سريعة الزوال، أيام معدودة، وأنفاص محدودة، ولكنها نفسية جدا، لأنها مزرعة الدار الباقية، فما يزرعه الإنسان هنا يحصده هناك، زمل يعمله اليوم يجزي به غدا، فاليم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل، قال تعالى: يَوْمَئِذ يَصْدُرُ النّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَهُز وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًّا يَرَهُ.[٤٠] ومن هنا كان لا بدّ للإنسان أن يعرف غايات حياته، وأسرار وجوده، ولا يليق به أن يكون همه بطنه وشهوته، شأنه شأن الأنعام المسخرة له، إنما يليق هذا بالإنسان الكافر ولا المؤمن، كما قال تعالى: إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ.[٤١] ويقول المصطفي ص. م. إن الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعلمون فالتقوا الله واتقو النساء.[٤٢]

---

[٣٧] الحديث رواه البخاري عن ابن عباس.
[٣٨] الحديث رواه الطبراني والبزار بحوه.
[٣٩] سورة البقرة: ٢٠١.
[٤٠] سورة الزلزلة: ٦-٨.
[٤١] سورة محمد: ١٢.
[٤٢] الحديث رواه الشيخان.

ولا يعني هذا ذم الغني ولا المال، فقد قال عليه ص. م. لعمرو ابن العاص: نعم المال الصالح للمرء الصالح.[٤٣] ولكنه لا يريد المال غاية للحياة ومعبودا للإنسان وإنما يريده وسيلة لا غاية وعونا على طاعة الله لا هدفا يراد لذاته.

ومن ركائز الفقه الحضاري الروح الإيجابية البناءة التي تجب أن تسيطر على عقل المسلم وشعوره، وتوجه تفكيره وسلوكه، وتتمثل في الاهتمام بالعمل لا الكمال، وبالبناء لا الهدم، وبإضاءة الشموع لا لعن الظلام. وما أورع هذا الحديث النبوي الذي يقول إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها.[٤٤]

ولماذا يغرس هذه النخلة الصغيرة والساعة قائمة أو تكاد، ولن يأكل منها هو ولا أحد بعد؟ وهي لا تثمر عادة إلا بعد سنوات والساعة قائمة. إنه رمز لمعنى كبير: أنّ العمل مطلوب لذاته، وأنّ المسلم يعبد اله بالعمل لعمارة الأرض، وأنه مستمر في عمله حتى يلقي ربه.

ولا بد من الإشارة، ونحن نتحدث عن معالم الحضارة الإنسانية كما رآها الإسلام، إلى ضرورة التنبيه على أمرين أساسيين يصبح العمل بتوافرهما صالحا مقبولا عند الله تعالى: أولهما أن يكون صالحا لله تعالى، غير مشوب بالرياء وحب الحياة والدنيا. وثانيهما أن يكون صوابا مراعيا سنن الله في خلقه ومنهاجه في شرعه.

الخاتمة

لقد صدق المفكر الإسلامي العظيم محمد إقبال حين أعلى وقرر: إنّ الحياة هي الحركة في أنشودته الجميلة:

> *"The motionless bank of river said: "in my on existence I have contemplated much to know what I am, but the meaning of my existence has not been revealed to me." Hearing this fast moving and tumbling wave replied. "The secret of life and the essence of it is movement; I exist so long as I move, when I cease to move*

[٤٣] الحديث رواه أحمد.

[٤٤] الحديث رواه البخاري و أحمد.

I shall cease to be."[45]

إنه ليس مجرد الحركة، وإنما الحركة القائمة على المبادئ التي جاءها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا منذ الزمان، فإن تلك القيم والمبادئ إذا تم تفعيلها وتحوليها إلى برامج عمل، كما حدث في الماضي، فإنها قادرة بدون شك، على الوفاء بكل المتطلبات ومواكبة كل التطورات في هذا العصر الذي يحلو لنا تسميتها بعصر العولمة وفي غيره من العصور، لأنها ليست مبادئ مؤقتة أو مرحلة بل هي مبادئ أساسية ثابتة تصاحب البشرية في كل مراحل تطورها من أجل سعادة الإنسان ومصلحته في دنياه وأخراه. وهذا يعني أننا مطالبون ببذل المجهود أضعافا مضاعفة لدراسة تلك القيم والمبادئ وفهم أسرارها ودقائقها عن طريق رفع مستوانا وكفاءتنا اللغوية، ونخص بالذكر اللغة العربية بالإضافة إلى قدراتنا الفكرية و الثقافية.

ثمّ إننا من خلال ما أوردنا في الصفحات السابقة لم تكن نقصد به مجرّد التغني بالأمجاد أو اجترار ذكريات حلوة. وإنما نقصد بذلك العودة إلى الجذور الأصلية التي في متناول أيدينا لأخذ الدروس والعبر من ماضينا العرق حتى يتسنى لنا مواصلة السير على الدرب ونبني كما بنوا ونستمر في البناء ليرتفع ونرتفع معه، إذ ليس من اللائق —كما كان يقول جمال الدين الأفغاني– أن نتذكر مفاخر آبائنا وأجدادنا إلا إذا فعلينا فعلهم.

مصادر البحث

الحندي، أنوار. د.ت. **مقدمات العلوم والمناهج**، م:٤ في اللغة و الأدب و الثقافة. القاهرة: دار الأنصار.

زقزوق، محمود حمدي. د. ت. **الإسلام في عصر العولمة**. د.م: مكتبة الشرف.

عبد التواب، رمضان. ١٩٨٣. **فصول في فقه العربية**، ٢. الرياض–القاهرة: مكتبة الخانجي والدار الرفاعي.

مجمع اللغة العربية. ١٩٨٥. **المعجم الوسيط**، ج:١. القاهرة: د.م، ط:٣.

[45] Khalifa Abdul Hakim, "Renaissance in Indo-Pakistan" in *A History of Moslem Philosophy*, Edited by M.M. Sharif, Vol. II, 1983, 1632.

مدكور، على أحمد. ١٩٩١. **تدريس فنون اللغة العربية**. الرياض: دار الشواف للنشر والتوزيع.

مسقان، دحية. **الاتجاهات الحديثة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في إندونيسيا** (دراسة وصفية تحليلية). رسالة الدكتورة. ٢٠٠٠.

هونكه، سيغريد. ١٤١٣ ه/١٩٩٣ م. **شمس العرب نسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوربا**. بيروت: دار الجيل – دار الأفاق الجديدة.

Abdul Hakim, Khalifa. 1983. "Renaissance in Indo-Pakistan" in M.M. Sharif (Ed.), *A History of Muslim Philosophy,* Vol. II.

Ferguson, I.C. 1971. *Arabic Language in Encyclopedia Britannica,* Vol. 2.